الباب الثاني عشر
القضاء والإدارة

من قديم وكبار الفقهاء يكرهون تولي القضاء، كالذي روي عن مالك وأبي حنيفة من كراهية تحمل المسئولية، وخوفًا من الحيد ولو قيد شعرة عن العدل. إنما يتولاها من أكره عليها، أو كان شرهًا يحب المال، ويقوي ضميره على تحمل المسئولية، وكانت أكبر مشكلة في زماننا وقبله اختلاط الاختصاص بين الوالي والقاضي، فكلاهما يرجو توسيع الاختصاص. وكثيرا ما اصطدما، فمثلًا تزوَّجت امرأة رجلًا ليس بكفء لها، كحادثة الشيخ علي مع بنت السادات، وأنكر وليها الزواج، وطلب من القاضي فسخه، فامتنع، فذهب أهلها إلى الأمير، فأمر القاضي بالفسخ، فامتنع أيضًا، ثم فرق الأمير بينهما، وسبب ذلك الاختلاط بين سلطة القضاء، وسلطة التنفيذ. وكان القاضي يتولى سلطانه من قبل الخليفة، وكان كثير من القضاة ذوي عظمة وجلال، حتى يُحضروا الولاة في مجالسهم إذا احتاج الأمر. ويحكون عن القاضي ابن حربويه الذي تولى سنة ٣٢٩هـ أنه كان آخر من ركب إليه الأمراء. وكان لا يقوم للأمير إذا حضر، وكان عزيز النفس، عدلًا، حتى إن مؤنسًا الوالي الكبير مرض، فأرسل إلى القاضي يطلب شهودًا، يشعرهم أنه أوصى بوقف على جهة من جهات الخير، فقال القاضي: لا أفعل حتى يثبت عندي أنه حر. وكتب إلى الخليفة المقتدر يسأله إذا كان قد أعتقه، ولما وصل الكتاب أبى القاضي إلا أن يشهد عدلان أنه كتاب أمير المؤمنين. وكان ابن حربويه هذا مثلًا عاليًا للقاضي، فلا يفعل أمام الجمهور ما يحط من كرامته، وكان لا يتقيد بمذهب من المذاهب، بل يجتهد. ومن القضاة العظام في هذا العصر أبو حامد الإسفرائيني قاضي بغداد المتوفى سنة ٤٠٦هـ، كتب إلى الخليفة يقول له: «اعلم أنك لست بقادر على عزلي عن ولايتي التي ولَّانيها الله تعالى، وأنا أقدر أن أكتب إلى خراسان بكلمتين أو ثلاث، أعزلك عن خلافتك». حتى لقد كان بعضهم من القوة، بحيث يستطيع أن يأمر بسجن أمير أو وزير. وكان من أعظم القضاة في ذلك العصر أبو الحسن بن أبي الشوارب فكان قاضيًا

عادلًا مهيبًا، وكان قاضي البصرة سنة ٣٩٩هـ.

ولم تكن عرفت المحكمة، ولكن عرفوا أن القضاء يجب أن يكون مباحًا للجمهور. فكان القضاة يجلسون في المسجد، أو على بابه، أو في دار القاضي، ويتقدم المتقاضون برقاع فيها اسم المدّعي والمدّعي عليه، وهي المسماة اليوم «عريضة الدعوى» ويعطونها للكاتب، وإذا حضر القاضي دفعها إليه، فيفصل فيها كلها أو بعضها، وإذا لم يستطع أجّل ما لم يستطعه إلى الغد. ويحكون أن إبراهيم بن الجراح كان مكروهًا من المصريين، فكان يقضي في داره، ولما ولي هارون بن عبد الله قضاء مصر جعل مجلسه في الشتاء في مقدم المسجد، واستدبر القبلة، وأسنده ظهره بالجدار، واتخذ مجلسه في الصيف في صحن المسجد، واستمرَّ الحال على ذلك إلى منتصف القرن الثالث الهجري، فمنع الخليفة المعتضد من جلوس القاضي في المسجد، ولكن هذا النهي لم ينفَّذ. وكره أبو العلاء المعري في عصره سيرة القضاة، والشهود المسمَّون بالعدول فقال:

في البدو خرّاب أذواد مسوَّمةٍ ... وفي الجوامع والأسواق خرّاب

فهؤلاء تسموا بالعدول أو التجّـ ... ـار واسم أولاك القوم أعراب

ويعني بمن في الجوامع: القضاة والشهود، ويقول في موضع آخر:

عُدولٌ لهم ظُلْم الضعيف سجيةٌ ... يسمَّون أعراب القرى والجوامعِ

وكان الفقهاء أولا يكرهون أن يأخذوا أجرًا في نظير قضائهم، ثم عين لهم أجر قليل، فكان ابن حجيرة في مصر يتقاضى مائتي دينار في السنة، وكان عبد الرحمن بن سالم قاضي مصر أيضا يتقاضى عشرين دينارًا في الشهر.

وكان بعض القضاة يتجر بجانب منصبه ليعيش عيشة محترمة. وقد رفع العباسيون ماهيَّة القضاة، فكان مرتب عبد الله بن لهيعة ثلاثين دينارًا في الشهر، وفي عصر المأمون، جعل للفضل بن غانم مائة وثمانية وستين دينارًا في الشهر، ويقول الرحالة ناصر خسرو:

«إن مرتب قاضي القضاة في مصر ألفا دينار في الشهر»... إلخ.

وقد انحطَّ القضاء على توالي الأزمان، فقلَّ أن ترى قاضيًا محترمًا مهيبًا وقورًا كالذي كنت تراه من قبل.

أما الإدارة، فكان على رأسها الخلفاء، وقد رأيت من قبل كيف انحطَّت رتبهم، واستبد بهم الوزراء، كما انحطت ثقافتهم؛ لأن الوزراء كانوا يكرهون خليفة مثقفًا.

ويحكي صاحب كتاب العلوم أن الوزير أبا أحمد العباس بن الحسن كان راكبًا ومعه أحد الكتَّاب الأربعة الذين يتولَّون الدواوين، فشاوره فيمن يرشح للخلافة بعد المعتضد. وكان الوزير يميل إلى ابن المعتز، فأجابه الكاتب إنه يجب ألا يولَّى في هذا الأمر من عرف دار هذا ونعمة هذا وبستان هذا، ومن لقي الناس ولقوه، وعرف الأمور وحنَّكته التجارب. قال له الوزير: صدقت فمن نقلِّد؟ فأشار الكاتب عليه بجعفر بن المعتضد، وقال: إنه صغير لا يدري أين هو. وعامة سروره أن يصرف من المكتب، فعمل الوزير على تقليده، وكان صبيا في الثالثة عشرة من عمره. وهكذا حتى كانوا يفتشون الكتب التي يقرؤها المرشح للخلافة لئلا تكون فيها منفعة، بل تكون لهوًا صرفًا، كالسندباد البحري، وألف ليلة وليلة، فما أكره الوزراء للخلفاء المتعلمين، ولذلك ضعف شأن متولي الإدارة، وكانت دواوين كثيرة، لكل ولاية ديوان يدير شئونها، حتى وحَّد المعتضد هذه الدواوين وجعل منها ديوانًا واحدًا أسماه «ديوان الدار» له ثلاثة فروع: ديوان المشرق، وديوان المغرب، وديوان السواد أي العراق، ولم تكن العدالة مرعيَّة، فكثرت المصادرات، بل كثر التعدي على الأرواح، ولم يعد أحد يأمن على نفسه وعلى ماله حتى الخليفة، فكم صودر، وكم سلبت أمواله، أو سملت عينه، وفشا في هذا العصر أخذ المسائل الإدارية كالقضاء التزامًا يلتزمون المرفق العام للخليفة، ثم يستبدون بمن يليهم. يقول ابن المعتز:

أفما ترى بلدًا أقمت به ... أعلى مساكن أهله خُصُّ

وولاتُـــــه نَـــــبَطٌ زنادقـــــةٌ مَـــلأى البطـــون، وأهلـــه خُمُـــصُ

وتهافت أرباب الدواوين على الألقاب، وقد كانت العادة من قبلُ أن يكتب للناس من فلان إلى فلان، ففي أول القرن الرابع كان يخاطب الوزراء والكبراء بيا سيدنا ومولانا، وكان ابن سعدان يخاطب الوزير ابن عباد، بالصاحب الجليل، ويخاطب الصاحب ابن سعدان، بالأستاذ مولاي ورئيسي، ثم زادت الألقاب، حتى قال الخوارزمي:

مـا لي رأيـتُ بنـي العبـاس قـد فتحـوا مـن الكُنَـى ومـن الألقـاب أبوابـا
ولقّبـوا رجـالا، لـو عـاش أولهـم مـا كـان يـرضى بـه للحُـشِّ بَوَّابـا
قـلَّ الـدراهمُ في كفَّـي خليفتنـا هـذا، فـأنفق في الأقـوام ألقابـا

ولقّبوا الماوردي القاضي بلقب «أقضى القضاة» وزادت الألقاب فيما بعدُ زيادة كبيرة، وتشكلت بالشكل التركي، وزادت حتى فقدت قيمتها.

وكانت الإدارة المالية سيئة جدًّا؛ لأنها شديدة الحساسية، يُخلّها مليم، ويعدّها مليم؛ وذلك لأنها كانت سيئة في دخلها، تعتمد كثيرا على المصادرات التي شرحناها من قبلُ، وفي خرجها إذ كثرت النفقات للإسراف في الترف، كما بينا. وكانت جباية الأموال غير عادلة ولا دقيقة.

ويروى لنا المؤرخون أن بعض الملاك يبيعون أرضهم بيعًا صوريًّا، لأولاد الأمراء ليقل الخراج عليهم، وبدأت ميزانية الدولة تنحط، ويزيد الخرج على الدخل، فكان مقدار الميزانية، حسب ما وصلنا في عهد المقتدر على حسب تقدير الوزير المشهور على بن عيسى نحو ١٩٠٤هـ ١٤٥٠ دينارًا، أضاعها كلها الخليفة المقتدر، كما أضاع ما تجمع عنده من الخلفاء قبله؛ وذلك بسبب كثرة الجند وشغبهم ومطالبتهم بالزيادة حتى اضطر أن يبيع دياره وفرشه وآنية الذهب التي عنده، وبلغ من فقر بيت المال في أيام المطيع لله

سنة ٣٦١هـ أن باع ثيابه، وأنقاض داره ليدفع ٤٠٠ ألف درهم طلبت منه للجند في أثناء الفتنة ببغداد.

والسبب في قلة الدخل أن كثيرًا من الممالك انفصلت عن الدولة العباسية واستقلت، كإفريقيا وخراسان ومصر وفارس وما وراء النهر، وكلها كانت تدر مالًا كثيرًا على الدولة في بغداد. وتململ الناس في عصرنا هذا من كثرة الضرائب، فبدأ الخلفاء يخفضونها من عهد المأمون، ونقصت الجزية، وكانت موردًا كبيرًا للمال. بسبب اندفاع الناس إلى الدخول في الإسلام، وكان العهد عهد إقطاع، وهو عهد ظالم، كالذي شاهدناه في عصرنا، وزاد الطين بلة إفراط الخلفاء ومن إليهم في أسباب الترف فانغمسوا في اقتناء الجواري، من كل الأصناف، واتخذوا الفرش من الخز والديباج والحرير، والمسامير من الفضة، وأكثروا من المتنزهات والقصور والمدن، ومجالس البيوت وتأنقوا في الطعام واللباس تقليدًا للفرس، وتحوَّل الغِنَى من الخلفاء إلى النساء والخدم والقوّاد. حتى حكى صاحب المستطرف أنه كان بين رياش أم المستعين بساط أنفقت على صنعه ١٣٠ مليون دينار، على ما يقولون، فيه نقوش على أشكال الحيوانات والطيور، أجسامًا من الذهب، وعيونها من الجواهر، حتى ليذكروا أن شاعرًا مدح امرأة فأعطته دُرًّا قوّم بعشرين ألف دينار، وكثر الإعطاء للمداح من الشعراء، كما يحدثنا صاحب الأغاني حتى لا يكاد الإنسان يصدق ما يحكيه من العطاء لكثرته.

وكثر الإعطاء من المال للوزراء والقضاة والقوّاد، حتى بلغت ماهية الحسين بن علي الماذراني والي مصر في أول القرن الرابع ٣٠٠٠ دينار في الشهر؛ هذا عدا ما يفرضه الخلفاء لأنفسهم وأهليهم، خصوصًا وقد منعوا السلطة، فصارت في يد وزرائهم من الأتراك.

والحق أن الإدارة المالية إذا اختلت اختل تبعًا لها كل شيء، من علم وتجارة وزراعة وصناعة، فعجيب أن يزهر العلم في هذا العصر، حتى يبلغ ذروته، ويختل النظام المالي،

وهذا يدلنا على أنه قد تختل السياسة، ويختل المال، ويزهر العلم؛ لأن اختلال السياسة واختلال المال لا يظهران إلا بعد عهد طويل.

وكان من أهم المصالح الإدارية مصلحة البريد، وقد عني بها المسلمون من العهد الأموي، كما عُني به العباسيون، وكانت مصلحة البريد تقوم بوظائف أكثر مما تقوم به مصلحة البريد اليوم، فكانت تقوم بما تقوم به اليوم مصلحة المخابرات، إذ كان رجال البريد مكلفين بإخبار الخلفاء بكل حركة يقوم بها كبار العمّال؛ حتى يتأهبوا لها، ولذلك يروى أن طاهرًا أمير خراسان وأول من انفصل عن الدول وأسس الدولة الطاهرية قطع الخطبة للمأمون على المنبر؛ وكلمه في ذلك صاحب البريد، فاعتذر بأنه نسيان منه، وتقدم إليه ألا يكتب للخليفة، وتكرر منه ذلك ثلاث مرات، فقال له صاحب البريد: إن كتب التجار لا تنقطع عن بغداد، وإن اتصل هذا الخبر بأمير المؤمنين من غيري لم آمن أن يكون سبب زوال نعمتي، فقال: اكتب إليه. وكان الخلفاء لا يحجبون صاحب البريد، ولو جاء في نصف الليل، علمًا منهم بأن مبادرة الأمور في أوائلها خير من الانتظار عليها.

ولذلك قال المنصور: «ما أحوجني أن يكون على بابي أربعة نفر، لا يكون على بابي أعف منهم، أما أحدهم فقاض لا تأخذه في الله لومة لائم، والثاني صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي، والثالث صاحب خراج يستقصي ولا يظلم الرعية، والرابع صاحب بريد يكتب خبر هؤلاء على الصحة». ولذلك كان العمال يخافون من صاحب البريد، ويعتبرونه جاسوسًا عليهم عند الخليفة، وأحيانًا يجعل الخلفاء بينهم وبين أصحاب البريد رموزًا، أشبه ما تكون بالشفرة اليوم، حتى لا تقع في يد العامل، فيعرف محتوياتها، هذا ما يتعلق بالخلفاء يضاف إلى ذلك مكاتبات الناس. وأحيانًا ينتهز بعض الناس فرصة البريد، فيركبون معه؛ لأن ذلك آمن لهم، وفي بعض الأحيان كانت ميزانية البريد ١٥٩١٠٠ دينار في السنة.

أما وسائل البريد، فكانت أمورًا كثيرة:

١- الجمال والأفراس، وربما كان المقصود بالجمال هو ما يسمى الآن «الهجين» لسرعة سيره. وربما بلغت قافلة البريد أربعين أو خمسين جملًا. وقد أعدت للبريد شبكة من الطرق، تشبه شبكة القطارات اليوم.

٢- السفن في البحار، وقد يستعملان معًا.

٣- الرجال العداءون، وخاصة في المدن الكبيرة كبغداد.

٤- الحمام الزاجل؛ فيربطون ورقة ويعلّقونها بعد تمرين الحمام على السير على مواقع يعلمونها.

٥- أحيانًا يستعملون سهمًا يضعون فيها قصبة فيها ورق، ثم يطلقونها، فيستلمها آخر، ويفعل بها مثل ذلك.

٦- وأحيانًا يستعملون ماء النهر فيضعون فيه الخرائط من الجلد، مكتوبًا عليها اسم صاحبها.

وأحيانًا يستعمل البريد لحمل بعض الناس الذين يأمر الخليفة بإحضارهم، وكانت توضع في أعناق الدواب سلاسل وأجراس تسمعها المدينة، فتعرف أن البريد حضر. ويسمونها عادة «قعقعة البريد» وكانت تقسم الطرق إلى مراحل، وفي كل مرحلة فندق كبير ينزل فيه عمال البريد ليرتّبوا شئونهم فيه. وهكذا إلى أقصى المملكة الإسلامية.

وقد أدت مصلحة البريد هذه خدمات كبيرة إلى المملكة الإسلامية من مثل قمع الفتن، ومنع المشاكل من الحدوث بسبب التأهب لها، وكثيرًا ما حملت العلماء من مكان إلى مكان ليحصّلوا العلم، والتاريخ مملوء بذلك.

وهناك عمّال آخرون لحفظ طرق البريد، وإمدادها بالأفراس أو الإبل الملاح، وحماةٌ

خاتمة

من هذا نرى أن الحركة العلمية في القرن الرابع كانت على أشد ما يكون، وأنه لم يشهد مثلها القرن الذي قبلها ولا الذي بعدها، وأنه لم يخل فرع من فروع العلم المعروفة في زمنهم من علماء يبحثون فيه ويوسعونه، وأن الفقر كان نصيب العلماء إلا من اتصل بالقصور، وأنه رغم انحطاط السياسة لم يتأثر العلم بها، فكان العلم والسياسة في ذلك الزمان ككفَّتيْ ميزان رجحت إحداهما وهي كفة العلم، وشالت الأخرى وهي كفة السياسة، وربما كان السبب في ذلك أن السياسة تحتاج إلى زمن طويل، حتى يظهر أثر ضعفها في الحياة العامة، وهذا ما كان لأنها أثرت في العلم أثرًا سيئًا في القرون التي بعد هذا القرن، بل ربما كانت السياسة في قرننا هذا سببًا غير مباشر لرقي العلم من جهتين: الأولى أن العلماء لما رأوا سوء السياسة وظلمها وعنتها واضطرابها، كرهوها، وانصرفوا إلى العلم وهو الملجأ الآمِن المطمئن، حتى كان بعضهم يأنف كل الأنفة أن يتصل بأمير أو وزير، ويتعفف عن زيارة السلطان وأعوانه، ويفضل العيش النَّكِد مع السلامة، على العيش الرغِد مع الخوف، والثانية اتخاذ الأمراء والوزراء العلماءَ زينة يزينون بها مملكتهم، فلفت ذلك نظر بعض الناس أن يتعلّموا ليتصلوا بهم وينتفعوا مما في أيديهم، فكان هذا السبب سببًا في كثرة العلم، سواء المعرِضون عن الولاة، أو المقربون إليهم.

ونرى أنه في هذا العصر زاد التصوف ونما وازدهر، وذلك لجملة أسباب:

١ - الارتقاء الطبيعي مع مرور الزمن.

٢- فساد الدنيا، فحمل بعض الناس على أن يتركوها لأصحابها، ويطلبوا الله والآخرة.

٣- ما كان من قيام الفقهاء على الصوفية، وتحريض الأمراء على التنكيل بهم،

كالذي رأينا من قصة غلام الخليل والحلاج، فدعا إلى ذلك إلى اضطهاد الصوفية. والناس دائمًا أعطف ما يكونون على المضطهد، والفكرة إذا اضطهدت كان اضطهادها علامة حياتها.

ورأينا في هذا العصر كثرة المذاهب، وكثرة الاحتكاكات بينها، كالاحتكاك بين المذاهب الفقهية المختلفة، والاحتكاك بين الشيعة والسنية، والاحتكاك بين الفقهاء والصوفية، والاحتكاك بين المحدثين والفلاسفة، وهذه الاحتكاكات المختلفة سببت نشاطًا عجيبًا في الحركة العلمية، إذ كان كل فريق يرى أن يتسلح أمام الخصوم بكل الوسائل ليتغلّب عليهم.

ولعلّ ذلك كان من الأسباب التي روجت الفلسفة اليونانية بين المسلمين؛ لأن منطقها أقوى سلاح يتسلح به.

وربما كان هذا العصر خاتمة العلم الإسلامي، نعم كان بعده علم، ولكن ليس إلا ترديدًا لعلم القرن الرابع.

وربما كان السبب في ذلك إقفال باب الاجتهاد في هذا العصر، فشمل الخمود والجمود كل علم وكل أدب، وانتشر في العلماء قلة الثقة بأنفسهم وزعمهم أن ليس للآخرين ما كان للأولين، وربما كان من الأسباب أيضا السياسة الفاسدة بعد أن طال زمنها، ووصل تأثيرها السيئ إلى العلم، ثم جاءت نكبة التَّتار، فذهبت بالبقية الباقية من هذه الحركة العلمية.

ومما يؤسف له أن نرى العلماء في ذلك العصر الزاهر انطووا على أنفسهم وتركوا الظالمين من غير أن يقفوا في سبيلهم، ولم يستطيعوا أن يضحوا، فيجهروا بالحق أمام الظالمين، والأدباء الذين ارتفع صوتهم ارتفعوا بمدح الظالم لا بردعه، وتحريضه لا قَمْعه. ولم يكن عندهم شعور بأنهم مسئولون عن ظلم الظالم، والصوفية الذين كانوا مظنة

الجهر بالحق انطووا أيضا على أنفسهم، وغسلوا أيديهم من هذا العالم، والوعاظ الذين كانوا يعظون، كانوا يعظون الشعب بتحمّل الظلم، ولا يعظون الظالم بالارتداع عن الظلم...!

وكان إحساس الناس بالظلم والعدل ليس إحساسًا مرهفًا، بل قد يعدون الظلم فضيلة، فنحن نرى أن الزجاج النحوي المشهور كان يفرض جُعْلًا على أصحاب المظالم، ليرفع الرقاع إلى الوزير، والوزير هو الذي مكنه من ذلك؛ والناس يصفونه بالصلاح والتقوى، والشعراء يمدحون إذا أعطوا، ويهجون إذا لم يعطوا، وقلَّ أن يمدحوا أميرًا بالعدل، أو يهجوه للظلم. والقصيدة في المدح أو الهجاء يصلح أن تنطبق على كل أحد سواء من استحق المدح أو الذم، وليس فيها تحليل دقيق لنفسية الممدوح أو المهجو.

والناس يحترمون العالم ويوقرونه لأنه زهد فيما أيديهم، لا لأنه سعى في خيرهم أو كشف الغمّة عنهم.

على كل حال لو سار العلم على طول الخط، كما سار في القرن الرابع الهجري، لكان شأننا غير شأننا اليوم، ولكان منا المخترعون المبتكرون، ولكن الجمود من جانب، والظلم من جانب؛ أماتا النفوس، وجعلا اليقظة صعبة.

ثم من الأسف أيضا أن أقبل الناس كثيرًا على النظريات المجردة، أكثر من إقبالهم على العمليات المجربة، مما نرى في مثل فلسفة الفارابي، والإمعان فيما وراء الطبيعة التي هي عبارة عن خيال في خيال، فأما نَمَط أمثال ابن الهيثم في ابتكاراته، فقد مات تقريبا.

وانصب الأدب في قوالب هي عبارة عن زينة لفظية، لا معنى غزير. ووقفوا عند المنهج الذي رسمه من قبلهم، فلا وزن يخترع، ولا نوع يبتكر، إلا أنواعًا سخيفة كالغزل بالمذكر الذي اخترعه أبو نواس، أو الفحش الفاجر الذي أفاض فيه ابن حجاج وابن سكرة، أو استجداء وحيل لكسب، كالذي اخترعه بديع الزمان والحريري.

وغَلَب منهج المحدثين في كل شيء، بما فيه من خير أو شر، فما فيه من الخير، هو الدقة في الرواية، ونقد الرواة، والحرص على السند والإجازة. والشر في الاعتماد على النقل دون العقل، وتقديس ما في الكتب، وتخريج عبارات المؤلفين، وإن كانت تصرخ بالخطأ إلى غير ذلك، وظل هذا المنهج يُعمل به في الأوساط الشرقية، وأخيرًا فقد ظل العالم الإسلامي طوال القرون العديدة يتغذى بعلم القرن الرابع وأدبه ومنهج علمائه إلى اليوم.

ونرى من كل هذا أن العلم العربي، وإن شئت فقل الإسلامي، بلغ في هذا العصر ذروته، وكان مظهره مصداقًا لما قلنا من قبل، من أن العلم ليس بضروري أن يلازم السياسة في رقيها وانحطاطها، فقد ترتقي السياسة وينحط العلم، وقد يكون العكس كما ذكرنا، والسبب في الارتقاء يعود إلى:

١ - امتزاج العلوم والثقافات لم يكن تمَّ نضجه إلا في عصرنا هذا.

٢ - أن العلماء المسلمين وجدوا أساسًا صالحًا، فكان من نشاطهم أن بنوا عليه.

٣ - أن المعتزلة كانت فرقة جادة مفكرة، أثمرت ثمارها في هذا العصر، ولكن مع الأسف لم يمض هذا العصر حتى أخذ نجمهم في الأفول وبحر العلوم في الانحسار.

ولذلك أيضا أسباب عكسية

أولًا: غزوة التتار وما أعقبته من تخريب ودمار، حتى أهلكت الأنفس، وأُغرقت الكتب.

وثانيًا: سد باب الاجتهاد لما رأى العلماء أنهم عاجزون عن بلوغ شأو من قبلهم، وكان كل ما يأملون أن يسيروا على منهجهم، ويجروا على منوالهم.

وثالثًا: اضطهاد المعتزلة على يد المتوكل ومن بعده، حتى خفت صوتهم، وقد كانوا دعاة الحرية والتفكير، والتحذير من الخرافات والأوهام، وغلبهم المحدثون، وهم دعاة النقل والرواية والوقوف عند النص.

ورابعًا: غلبة الأتراك، وهم -والحق يقال- عنصر لم يكن مثقفًا ثقافة تامة، ولا مشجعًا للثقافة، وقد كانت العصور الماضية على العموم يعتمد علماؤها وأدباؤها على الولاة والأمراء الذين يفهمون علمهم وأدبهم، فلما عزَّ من يفهم، لم يتشجع العلماء على أن يظهروا علمهم، فظللنا من آخر القرن الرابع تقريبا ونحن في عماء، ومصداق ذلك ما نراه من الموسوعات «كالمسالك والممالك» و«صبح الأعشى» و«نهاية الأدب» فكلها تقريبًا ليست إلا جمعًا لأشتات المتشابهات من غير تجديد.

ومن ملاحظتنا أن الأدب قد نما وترعرع أكثر من العلم بالمعنى الدقيق، فقد بلغ الأدب ذروته وكانت الفوضى السياسية التي بدأت من قديم تعمل عملها، وتظهر نتائجها؛ وكان الأدب في الجاهلية أسلوبًا أكثر منه موضوعًا، وكان في العصر الأموي أدب أحزاب أكثر منه أدب أمة، وجاء العصر العباسي الأول ثم الثاني، فانتقلت معاني الفرس والهنود وفلسفة اليونان إلى اللغة العربية، وكانت غذاء صالحًا للأدب، وجاء أمثال ابن المقفع والجاحظ وجعلوا للأدب موضوعًا، وجعلوا له أسلوبًا، وجاء بشار وأبو نواس، فعبرا التعبير الصادق عن الحياة الاجتماعية الجميلة لا الحياة الجاهلية القديمة، وجرى الشعراء على أثرهما، فلما جاء القرن الرابع، كان قد نضج كل ذلك، وأخذ الكتاب والشعراء يدخلون المعاني الجديدة في الأدب الجديد، فكان النثر والشعر يعبران تعبيرًا صادقًا عنه في الغالب. هذا إلى أن كثرة الأموال في الدولة وعيشة الترف والنعيم عَدَتِ الأدب، فأخذ هو الآخر، يتزين ليعجب المترفين، وأخذ ما كان يُبنى على الذوق الفطري من نقد يتحول إلى علم ذي قوانين. وكان القرن الرابع نهاية المطاف.

إنك لتقرأ تاريخ كثير من الأدباء فتراهم نكبوا؛ لأنهم ناصروا بعض البويهيين، فلما

انتصر عليهم خصومهم، أهينوا أشد أنواع الإهانة، وابن سينا الفيلسوف الكبير، لعبت به السياسة لعبًا كبيرًا حتى فرَّ أحيانًا، وإذا كان الخلفاء والأمراء يقتلون أحيانًا وتُسْمَل أعينهم أحيانًا، ويستجدون الناس على أبواب المساجد أحيانًا، فما بالك بالعلماء والأدباء؟ إن هؤلاء كلهم لو عاشوا في جو هادئ لأنتجوا خيرًا مما أنتجوا، ولاستفاد الناس منهم أكثر مما استفادوا، فسلسلة الاضطرابات السياسية قطعت سلسلة العلم والأدب. فقد ظلا نائمين خامدين، إلى النهضة الحديثة، حتى لو أننا فقدنا نتاج القرون الماضية من القرن الخامس إلى عصر النهضة لم تكن فقدنا كثيرًا.

والعلم والأدب عادة في أشد الحاجة إلى هدوء بال، وطمأنينة نفس، وراحة في الرزق، فما لم توجد هذه الثلاثة لا يستوي لهما طريق، ولا يؤمل لهما نجاح، شأنهما شأن الزهرة الناعمة؛ إذا عصفت بها العواصف ولم تُرْوِ في أوقاتها ذبلت، أو ضعفت.

وقد أخرج هذا العصر كثيرًا من الأمراء والوزراء الذين شجعوا الحركة العلمية، إما لرغبتهم في العلم، وإما لتزين مجالسهم بالعلماء، كما تزين بالتحف الطريفة، ذلك أنهم فيما مضى من العصور العباسية، كانت بغداد وحدها هي مقصد العلماء والشعراء والأدباء، لأنها عاصمة المملكة الإسلامية كلها، فلم يك ينبغ نابغ في أي قطر، ويجب أن يشتهر إلا ويقصد بغداد لينال هذه الشهرة.

فلما انقسمت الدولة الإسلامية إلى دول ودويلات صغيرة، تعددت العواصم، وتعددت رحلات العلماء والأدباء، فمنهم من كان يقصد القاهرة، ومنهم من كان يقصد حلب، ومنهم من كان يقصد الري أو شيراز أو بغداد أو غيرها من البلاد، وكانت هذه المدن تتنافس في اجتذابها للعلماء، واشتهر في هذا العصر من الأمراء البويهيون في العراق، والفاطميون في القاهرة، والحمدانيون في حلب والجزيرة، والسامانيون فيما وراء النهر، وكل هؤلاء قربوا العلماء والأدباء إليهم، وأنفقوا على العلوم العربية، والآداب العربية، حتى إن بني بويه مع فارسيتهم، شجَّعوا اللغة العربية والأدب العربي أكثر مما شجعوا

الأدب الفارسي واللغة الفارسية. ومن غريب أمرهم أنهم عدوا البلاغة وسيلة الوزارة؛ ذلك لأن الأدباء كانوا هم السياسيين، يتثقفون في السياسة ثقافة عامة مع الأدب، ولم تكن السياسة قد أصبحت علمًا كما هو اليوم، إنما كانت تدرك بالذوق الفطري وتستفاد من التجارب، ومن كتب التاريخ؛ لهذا رأينا من أشهر الوزراء ابن العميد والوزير المهلبي والصاحب ابن عباد، وفي القاهرة يعقوب بن كلس وغيرهم، وكلهم علماء أدباء، ولذلك تجد في كتبهم ورسائلهم كثيرًا من المعلومات السياسية العامة، فابن العميد كان أديبًا كبيرًا، وله مذهب في الأدب معروف مؤسس على السجع والجناس وسائر أنواع البديع، وله كذلك شهرة كبيرة في السياسة. وقصده الناس والعلماء من كل ناحية، فهو يملي عليهم ويقترح على الأدباء موضوعات يقولون فيها الشعر. وهذا الوزير المهلبي كان فقيرًا وبائسًا، وكان من قوله:

ألا مـــوتٌ يُبـــاعُ فأشـــتريه ... فهـــذا العـــيش مـــا لا خَـــيْرَ فيـــه

ألا مـــوتٌ لذيـــذُ الطَّعـــم يـــأتي ... يخلِّـــصني مـــن العـــيش الكريـــه

إذا أبـــصرتُ قـــبرا مـــن بعيـــدٍ ... وددت لـــو أننـــي ممـــا يَليـــهِ

ألا رحـــم المهـــيْمِنُ نفـــس حُـــر ... تـــصدَّق بالوفـــاة عـــلى أخيـــه

فلما ظهر أدبه استوزر وعاش عيشة مترفة ناعمة، وكان يُجلس الأدباء والشعراء في مجلسه، ومن جلسائه أبو الفرج الأصفهاني، وهذا الصاحب ابن عباد يقول الشعر وينقده، ويقود حركة فكرية رائعة، ومن حبه للعلم والأدب أنه كان يرسل إلى بغداد كل عام خمسة آلاف دينار تفرَّق في الأدباء والفقهاء، وكان يطمح أن يتملك العراق، فيستكتب أبا إسحاق الصابي. وهذا ابن سعدان، كان وزير صمصام الدولة، وكان يأنس بالفلسفة أكثر مما يأنس بالأدب، وكان من جلسائه أبو حيان التوحيدي وتدل أسئلته التي كان يسألها أبا حيان في النفس وخلودها ونحو ذلك، على أنه ذو عقلية فلسفية، وكان يعتز بجلسائه ويفتخر بأنهم خير من ندماء المهلبي، فكان من جلسائه عيسى بن

زرعة النصراني المتفلسف، وابن عُبَيْد الكاتب، وابن الحجاج الشاعر، وأبو الوفاء المهندس، ومكسويه، وأبو القاسم الأهوازي، وبهرام بن أردشير، وكان يقول: «ما لهذه الجماعة بالعراق شكل ولا نظير، وإنهم لأعيان أهل الفضل وسادة ذوي العقل، وإذا خلا العراق منهم، خلا من الحكمة المروية، والأدب الغزير، وهل عند ابن عباد إلا صاحب الجدل الذين يشغبون ويحمقون؟»[1]. وهذا سابور بن أردشير، وزير بهاء الدولة البويهي، كان كاتبًا سديدًا، جمع كثيرًا من الشعراء كغيره من الوزراء كالسُّلَامي والبَبَّغاء والنامي والحاتمي.

ومن العجيب أن آل بويه هؤلاء شُهِروا بالظلم وكثرة المصادرة للأموال، والنهب من الأغنياء حتى إنا نجد بعض الرسائل التي وصلت إلينا من هذا العهد البويهي مملوءة بالشكوى من الظلم، فيقول الصابي مثلا في بُخْتِيَار البويهي: «فما زال بختيار يسيء الاختيار ويتنكب الصواب، ويتجنب الإصلاح، ويمزق الأموال، ويعرض الدولة للزوال، ويهرج الأولياء أشد الإهراج، ويحملهم على أعوج المنهاج، ويخرب الأوطان، ويشتت الأقران، ويقتل الكُفاة، ويستكفي الغُواة؛ إلى أن بلغ من فاسد سيرته، وضال طريقته، أن استكتب محمد بن بقية، المحيط بكل خلة دنية». وربما كان هذا الوصف ينطبق على أكثر البويهيين وعمالهم.

ويقول أبو بكر الخوارزمي في وصف سيرة حاكم: «فما زال يفتح علينا أبواب المظالم، ويجتلب فينا ضرع الدنانير والدراهم، ويسير في بلادنا سيرة لا يسيرها السِّنَّور في الغار، ولا يستجيزها المسلمون في الكفار، حتى افتقر الأغنياء، وانكشف الفقراء، وحتى ترك الدِّهقان ضيعته، وجحد صاحب الغَلَّة غلَّته، وحتى نشَّف الزرع والضرع، وأهلك الحرث والنسل، وحتى أخرب البلاد، بل أخرب العباد، وحتى شوَّق إلى الآخرة أهل الدنيا، وحبب الفقر إلى أهل الغِنَى... والله ما الذئب في الغنم بالقيامِ إليه إلا من

(١) انظر: الإمتاع والمؤانسة، والصداقة والصديق لأبي حيان.

المصلحين ولا السوس في الخز في الصيف عنده إلا من المحسنين». ويصف بديع الزمان الهمذاني أحد قضاتهم فيقول: «يا للرجال وأين الرجال؟ ولي القضاء من لا يملك من آلاته غير السباب، ولا يعرب من أدواته غير الاختذال، وما رأيك في سوس لا يقع إلا في صوف الأيتام، وجراد لا يسقط إلا على الزرع الحرام، ولص لا ينتقب إلا على خزانة الأوقاف». ويقول بعض الشعراء:

إن شئت أن تبصر أعجوبةً ... من جور أحكام أبي السائب

فاعمد من الليل إلى صُرَّةٍ ... وقرر الأمر مع الحاجب

حتى ترى مروان يقضي له ... على عليٍّ بن أبي طالب

ومع ذلك؛ كانوا يغدقون على العلماء إغداقًا كبيرًا، فهم على الجملة نهّابون وهّابون.

فإن نحن تجاوزنا بني بويه في العراق وما حوله وجدنا في القاهرة الفاطميين الذين شجعوا العلم والأدب أكبر تشجيع، فهذا الحاكم بأمر الله ينشئ «دار الحكمة» وهؤلاء العلماء يجتهَدون في كل أنواع العلوم، وهذا وزيرهم مثلًا يعقوب بن كلس الذي كان من أصل يهودي وأسلم، قال فيه ابن خلكان: «كان يحب أهل العلم، ويجمع عنده العلماء، ورتب لنفسه مجلسًا في كل ليلة جمعة، يقرأ فيه مصنفاته على الناس، ويحضره القراء والفقهاء، والنحاة وغيرهم من وجوه الدولة، فإذا فرغ من مجلسه قام الشعراء ينشدونه المدائح، وكان في داره قوم يكتبون القرآن، وآخرون يكتبون كتب الحديث والفقه والأدب، حتى الطب. وكان يقيم كل يوم خوانًا لخاصته من أهل العلم والكتابة، وخاصة أتباعه». ولعل خير ما يمثل ميلهم إلى العلم بناؤهم للأزهر الخالد إلى اليوم.

وهذا سيف الدولة في حلب والجزيرة، كان مجلسه مملوءًا بالشعراء والأدباء، وفيه بعض الفلاسفة كالفارابي، وبعض النحويين كابن خالويه.

وكان أيضا حاكمًا ظالمًا كالبويهيين سهل له قاضيه كل مظلمة، حتى قال القاضي

يومًا: «من هلك فلسيف الدولة ما ملك». فكان سيف الدولة أيضا نَهَّابا وهَّابًا، يصادر الناس في أموالهم، ليمنحها للمتنبي وأمثاله، فيصوغون له قلائد المدح؛ وينطبق عليه الحديث: «ليتها ما زنت ولا تصدَّقت».

لهذا كله أنتج القرن الرابع هذا كثيرًا من العلماء في كل علم، مثل إبراهيم المروزي، والقدوري، والطحاوي، وابن السريج في الفقه، والدارقطني والنيسابوري وغيرهما في الحديث؛ وأبي علي الفارسي، وابن دريد، والنحاس، وابن فارس، وابن جني، والزجاج، وابن درستويه، وابن السراج في النحو واللغة؛ والمتنبي، وأبي فراس، والناشئ، والنامي، وابن حجاج، وابن سكّرة، وابن طباطبا، والخالديين في الشعر، وأبي هلال الصّابي، والخوارزمي، وجحظة البرمكي، وبديع الزمان الهمذاني، وعلي بن عبد العزيز الجرجاني في الأدب؛ والطبري وابن زولاق، والشابشتي، والمسبّحي في التاريخ، وابن جنزابة، والإصطخري وغيرهما في الجغرافية، وابن مقلة في الخط، والجبّائي، والحسن الأشعري، والكعبي، والبلخي في علم الكلام، وابن نباتة في الخطابة. فكل هؤلاء نشطت حركتهم، وكثر علمهم وأدبهم، مما لا أظن أن عصرًا من العصور أخرج مثلهم، حتى جاءت الحركة الحديثة التي نشأت من الاحتكاك بالأجانب والاقتباس من مدينة تغاير المدينة الإسلامية في كل ناحية من نواحي العلم والفن والحضارة، فأخذنا عنهم، وسرنا سيرهم، وتفتحت عيوننا بعض الشيء فأخذنا نُغَربل القديم وننقده، بأعيننا الجديدة، وصار أمامنا مدنيتان مختلفتان: لعل المدينة الغربية منهما أوفر علمًا بمعنى العلم الحديث، وعلى أثر ذلك بدأت الحياة العلمية في الشرق تدب من جديد، وأمامها مادة وفيرة من المدنية الإسلامية، ومادة وفيرة من المدنية الغربية.

والمتأمل فيما يجري يرى أننا متجهون إلى اقتباس العلم والمخترعات بقدر كبير من المدنية الغربية، ومقتبسون الروحانية والتصوف والأسلوب ونحو ذلك من المدنية الإسلامية؛ فنحن نمثل في الحقيقة الإسكندرية أيام كانت تقتبس من الشرق دينه

وروحانيته وإلهامه، ومن اليونانية طبيعتها، وكيمياءها، وطبها ونحو ذلك، أو كما فعل المسلمون في العصر العباسي الأول إذ أخذوا الثقافة الهندية والفارسية واليونانية والرومانية ومزجوها بعضها ببعض، وكوَّنوا ثقافة هي مزيج من كل ذلك، وصدق التعبير المشهور: «التاريخ يعيد نفسه». ولكن قد يختلف شكل الإعادة حسب اختلاف الهيئات والظروف، وحقيقة الجوهر لا تختلف.

ونحن نؤمل أن العالم يسير إلى الأمام على العموم، قد تتخلف بعض الأمم فتموت، وقد تتخلف بعض الأمم في بعض النواحي؛ ولكن العالم في جملته يسير إلى الأمام دائمًا؛ فعالم اليوم خير من عالم الأمس. قد كان العالم محكومًا بحفنة من الملوك المستبدين، لا يرعون للشعوب حقًّا، وكانت تكفي الكلمة لقتل من شاءوا ومصادرة من شاءوا -كما رأينا- ثم أصبح للشعوب حقوق، وللشعوب قوة، تعزل بها وتولي وتشرع، ولم يصل العالم إلى منتهاه بعدُ. فلا تزال فيه حفنة من قادة السياسة تقوم مقام الملوك، تعلن الحرب، وتخرب الممالك، ونحو ذلك، من أفعال سيئة، ولكن العالم سيتقدم، والعلم سيتقدم، والنظريات الغامضة ستتضح، ويفهم العالم في المستقبل القوانين التي تحكم العالم، والحقوق التي لهم على رؤسائهم. وستكون الشعوب هي التي تتحكَّم في أمورها، وترعى مصالحها... قد يكون ذلك قريبًا، وقد يكون بعيدًا، ولكنه سيحدث على كل حال.

وهناك مسألة أخرى، وهي النظر إلى نوع ما شاع بين المسلمين كما رأينا من عظمة الثقافة الأدبية، دون العلمية، ونعني بالثقافة الأدبية، الأدبية بالمعنى الواسع الذي استعملت فيه كلمة الآداب، فتشمل الدراسة الأدبية، الشعر والنثر، والجغرافيا والتاريخ، وآداب اللغات؛ كما نعني بالثقافة العلمية المعنى الذي استعملت فيه كلمة كلية العلوم، من طبيعة وكيمياء، ورياضة، وجيولوجيا، ونحوها.

والناظر في هذا العصر الذي نؤرخه والذي قبله وبعده، يرى طغيان الثقافة الأدبية

على الثقافة العلمية، وعناية الشعوب بالآداب أكثر من العلوم. ومصداق ذلك أننا لو دخلنا مكتبة عربية رأينا ما يساوي واحدًا في المائة منها علمًا، والباقي أدبًا، فلو حصرنا كتب التراجم مثل ابن خلكان، وجدنا أن أكثره أدباء، بالمعنى الواسع، وأقله علماء، خصوصًا إذا ضممنا المفسرين والمحدثين والفقهاء إلى باب الأدب، فنجد مئات الأدباء، بينهم قليل من أمثال ابن الهيثم وأبي الوفاء البوزجاني.

نعم: إن لكل نوع من هذين النوعين مزايا وعيوبًا، فمن ميزات الثقافة الأدبية توسيع الذهن، وتربية العواطف، وفهم الحياة الاجتماعية على وجهها، ومن أضرارها عمومها وعدم دقتها، واستعداد من يتثقف بها للجدل، وقدرته عليه، واستطاعته إقامة البرهان على الشيء ونقيضه.

ومزية الثقافة العلمية التحديد والدقة، إذ كلها تقريبا مثل ١ + ١ = ٢، أو مضاعفات ذلك. ومن ميزاتها أن أصحابها لا يقبلون الجدل الكثير، فالمسألة إما صحيحة، وإما خطأ، وليس هنالك وسط، ومن عيوبها خلوها من العواطف واقتصار أصحابها على دائرة معينة لا يسبحون في غيرها إلا إذا تثقفوا ثقافة أدبية، ولذلك ترى أنه إذا تزحزحوا عنها قيد شعرة، كانوا أشبه بالعوام.

والثقافتان معًا لازمتان لكل أمة؛ إذ لا يمكن أن تخلو أمة حية من ثقافة أدبية تغذي العواطف، وثقافة علمية تغذي العقل.

وقد حرصت كل الأمم تقريبًا على أن يكون لها كلية آداب، وكلية علوم، كلية آداب تحيي النثر والشعر، وتدرس التاريخ اتِّعاظًا بالماضي، والجغرافيا لمعرفة شئون العالم؛ وكلية علوم تضبط الذهن وتقوي العقل.

وربما كان السبب في غلبة الميل إلى الأدب أكثر من العلم أن الأدباء بطبيعة أدبهم، وبطبيعة طول لسانهم كانوا أقرب إلى قلوب الملوك والأمراء، يمدحونهم ويتزلفون

إليهم، بينما رجال العلم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئًا من ذلك، إذ هم قصيرو اللسان لا يتكلمون إلا بقدر... هذا إلى أن الأدباء عادة أقدر على السمر اللطيف، والحديث الممتع، والنكت الطريفة، على حين أن العلماء متزمتون، غير قادرين على المرح والنكت.

وكان ذلك تقريبًا ظاهرًا في كل العصور الإسلامية من مبدأ عصر الإسلام إلى قرب عهدنا بقليل فلما جاءت المدنية الحديثة، وكانت قد أسست أكبر ما يكون على العلم، وعلى الاختراعات والصناعات اقتبسنا منها، ونحونا نحوها.

نعم: إن المدنية الحديثة لم تهمل الأدب، ولكنها مع ذلك قوَّمت العلوم تقويمًا كبيرًا، فأخذنا نؤسس حياتنا على العلم أيضا، حتى لا يكون عالة على غيرهم، وكان من نتيجة كثرة عنايتهم بالأدب كثرة كلامهم وكثرة جدلهم، حتى لا يتناسب محصول فعلهم مع محصول كلامهم. ومجالسهم مملوءة بالجدل والمناقشة، ومشروعاتهم مملوءة بالبحث النظري من غير نتيجة.

بل نرى أن اتجاه الغربيين إلى العلوم وتوسعهم فيها جعلهم يلونون أدبهم بلون العلم، وكان دائمًا لأدبهم موضوع، على عكس ما نرى ما نرى عند الخوارزمي، والعماد الأصفهاني والقاضي الفاضل من كلام كثير لا موضوع له.

بل أظن أن الثقافة الأدبية تجعل صاحبها أقدر على الميوعة في الأخلاق، والقدرة على التأويل، وكما قال البوصيري في إحدى قصائده:

وما أخشى على أموال مصر ... سوى من معشرٍ يتأولونا

ونحن لو درسنا الشرق لرأينا فيه من الكفايات ما يكفي العلم والأدب جميعًا، فالجو الذي أخرج ابن الهيثم يستطيع أن يخرج أمثاله من العلماء، لولا أن الشعب لظروفه وجَّه ناشئيه إلى الأدب. ولو وجِّهوا إلى العلم، لكانوا بحسن استعدادهم نابغين، فعلى الشرق الآن عبء ثقيل هو أن يعوض عن القصور في العلم فيما مضى، النهوض بالعلم في

الحاضر، ونحن إن فعلنا ذلك ملئت كتب تراجمنا بالعلماء والأدباء على السواء. والله الموفِّق.

المراجع

- نفخ الطيب.

- دائرة المعارف الإسلامية

- المكتبة الأندلسية.

- بغية الوعاة في أخبار النحاة: السيوطي.

- مقدمة ابن خلدون.

- المُغرِب: لابن سعيد.

- العقد الفريد وما إليه: لجبريل جبور.

- الأمالى لأبي علي القالي.

- الشعر الأندلسي: للأستاذ نيكل.

- مطمح الأنفس.

- قلائد العقيان: للفتح بن خاقان.

- تاريخ ابن عذارَى.

- المعجب في أخبار المغرب: لعبد الواحد المراكشي.

- أخبار الحكماء: للقفطي.

- طبقات الأطباء: لابن أبي أصيبعة.

- ابن رشد وفلسفته: للأستاذ فرح أنطون.

- الأغاني: لأبي الفرج الأصفهاني.

- العقد الفريد: لابن عبد ربه.

- بحوث في تاريخ إسبانيا: لدوزي.

- الفصل في الملل والنحل: لابن حزم.

- الملل والنحل: للشهرستاني.

- الفتوحات المكية: لابن عربي.

- العواصم من القواصم: لأبي بكر بن العربي.

- تاريخ الموسيقى العربية: لربيرا.

- بداية المجتهد ونهاية المقتصد: لابن رشد.

- الفكر السامي في الفقه الإسلامي: الحجوي.

- تاريخ الفقه الإسلامي: للشيخ الخضري.

- تهافت الفلاسفة: للغزالي.

- تهافت التهافت: لابن رشد.

- فصل المقال فيما بين الشريعة والفلسفة من الاتصال: لابن رشد.

- الإمتاع والمؤانسة: لأبي حيان التوحيدي.

- الجمهورية: لأفلاطون.

- حي بن يقظان: لابن طفيل.

- رحلة ابن جبير.

- رحلة ابن بطوطة.

- اختراق الآفاق: الشريف الإدريسي.

- روبنسن كروسو.

- الزهرة: لابن داود.

- طوق الحمامة: لابن حزم.

- تراث الإسلام: ترجمة لجنة الجامعيين.

- الحلل السندسية: لشكيب أرسلان.

- شرح المقامات للحريري: للشريعتي.

- سراج الملوك: الطرطوشي.

- وفيات الأعيان: لابن خلكان.

- فوات الوفيات.

- بلاغة العرب في الأندلس: للدكتور أحمد ضيف.

- النثر الفني: للدكتور زكي مبارك.

- المخصص: لابن سيده.

- تاريخ الفلسفة في الإسلام: ترجمة الأستاذ أبي ريدة.

- ديوان ابن زيدون.

- ديوان ابن هانئ.

- الإحاطة في أخبار غرناطة: للسان الدين بن الخطيب.

- معجم الأنساب والأسرات الحاكمة: لزانباور، ترجمة للدكتور زكي حسن وآخرين.

- الذخيرة: لابن بسام.

- الجامعة: لمسلمة المجريطي.

- التوابع والزوابع: لابن شهيد.

- تاريخ العرب: لبروكلمان.

- الأخلاق والسير: لابن حزم.

- ابن حزم: للأستاذ سعيد الأفغاني ومعه كتاب فضائل الصحابة لابن حزم أيضا.

- الرسالة الهزلية والرسالة الجدية: لابن زيدون.

- شرح قصيدة ابن بدرون: لابن عبدون.

- أطلس فني: لآثار الحمراء.

- سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون.

- قصة الأندلس: لِلِينْ بول.

- رسائل مخطوطة: لابن سبعين.

- رسالة الشعوبية: لابن غرسية.

- تاريخ الآداب الأندلسية: للمؤلف آسين بلاثيوس، ترجمة الدكتور حسين مؤنس.

- رواية آخر بني سراج وذيلها: لشكيب أرسلان.

- الإحكام في أصول الأحكام: لابن حزم.

- المكتبة الجغرافية.

- جذوة المقتبس: للحميدي.

- أزهار الرياض: للمقري.

- الروض المعطار.

- نهاية الأندلس: للأستاذ محمد عبد الله عنان.

- تاريخ إسبانيا المسلمة: لدوزي بالإنجليزية.